دلالة المكان في رواية (كاهنات معبد أور) لرسمية محيبس (النهر إنموذجًا)

م٠ م ٠ مريم جبل كاظم سعدون النائلي
جامعة القاسم الخضراء – كلية التربية – قسم اللغة العربية
aljbwrymhnd949@gmail.com

الملخص :

المكان "انه اصطلاح يشر الى جمع أمكنَة وأمكُن وجمع أماكن(بكسر الكاف) الموضع بمعنى المفعل من الكون، وقد قيل هو من العلم بمكان دلالة بان له فيه مقدرة ومنزلة , واما عند قول هذا مكان هذا أي اشارة الى التبديل, بدله" .(١). حاول التعريف اللغوي ضبط مصطلح المكان كلفظ، لكن اتضح أن مفهومه يتسع ليشمل أكثر من معنى واحد ودلالات عدة، نظرًا لارتباطه بكل ما هو موجود، سواء أكان ملموسًا أم مدركًا. وبناءً على ذلك، يتحدد تعريف المكان وفقًا للدراسة التي تتناوله، ومع ذلك تتفق جميع الدراسات في المجال اللغوي على تحويله من مجرد إطار جغرافي ثابت إلى فضاء يتشكل عبر الخيال والفكر، حاملًا دلالاتهما، إذ يوجد هنالك ربط مفهوم المكان بالوضع الاجتماعي الذي يعيشه الفرد على اعتبار أن المكان :« هو المكان الاجتماعي الذي , في حين هناك من ربطه يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه .» (٢)

بالعقل والأفكار الفطرية مثل : ديكارت , أما عند المحدثين فتكاد تتقارب وجهات النظر بينهم بعّد المكان وسط ذو أكثر من بعد .

Abstract:

Place is the plural of places and places, and the plural of places (with a kasra on the kaf) is the location, which is the passive participle of the universe. It is said that it is from the knowledge of a place, meaning that he has power and status in it. It is said that this is the place of this, meaning its substitute. ( ). Although the linguistic definition tried to control the term place as a word, we found that its concept carries more than one concept and more than one meaning, due to its connection to what exists, whether it is tangible or perceived. Hence, place takes its

definition based on the study that addresses it. However, all studies agree that it takes it out of its rigid geographical framework, to another framework adapted by imagination and thought, which in turn carries their meaning. We find that there are those who linked the concept of place to the social situation in which the individual lives, considering that place: “is the social place that, while there are those who linked it to contain the essence of the interaction between man and his society.” ( ) With reason and innate ideas, such as Descartes. As for geometers and modern scientists, their viewpoints are almost convergent, considering space as a medium with more than one dimension.

المكان في العمل الروائي :

لا بد من الإشارة إلى ضرورة تنوع الامكنة في الرواية، فـ" ليس هنالك رواية تقتصر أحداثها على مكان واحد فقط. و إن بدا أن الرواية تجري في مكان واحد، فإنها تخلق أجواءً تنقلنا خياليًا إلى أماكن أخرى وفقا لحدنكة الروائي.", ويعلّل هذا الحمداني بأن " الرواية مهما قلص الكاتب مكانها تفتح الطريق دائما لخلق أمكنة , ويطمح هذا النوع من التموضع لدلالة المكان إلى تحديد هذه الدلالة وتحليلها داخل المحتوى الروائي ، وعدده بنية دلالية ، طبقا لما اكدته (فرونسواز روسيم):

" إن كل رواية هي بحد ذاتها كلية مبنينة وذات دلالة "، وان النص الأدبي يرشح بدلالات متعددة ، وعلى ذلك لا يمكن أن نحكم على أن النص يخضع لدلالة ثابتة ، تحت شروط شبكة معقدة من العلاقات المترابطة النسج بين الظاهر والمضمور ، وهذا ما يجعل النظرة إلى الدلالة بعدها صيرورة نصية متداولة ، تحت سيطرة محافل الإنتاج و التلقي ، ولكن أين تكمن تلك الدلالة ؟ .

إن تجربة الكاتب الروائية لا يطمح إلى عكس واقع خارجي ، أو نقل تجربة معيشة ، بل تطمح إلى الكشف عن إمكانات الكتابة الروائية ، بوصفها اشتغالاً على اللغة والتخييل وهو ما جعل وعيه بالمكان انعكاسًا مكثفًا لرؤيته للوجود في مجمله؛ إذ إنّ الوعي بالمكان في جوهره لا ينفصل عن البنية الثقافية التي يتشكّل منها الكاتب، بل يُعدّ أحد المرتكزات الأساسية لتلك البنية. ومن ثمّ فإنّ المكان في النص الروائي لا يُقرأ بوصفه مجرد إطار خارجي للأحداث، بل باعتباره تجسيدًا للثقافة التي يحملها الروائي، ومرآةً لرؤيته الكونية التي تتبدّى عبر فضاءاته السردية، وهو من المفاهيم التي تتحدد بسهولة وشمولية ، وهو رمز يرتبط بدلالات معينة بذاكرة الراوي وبحالاته النفسية المتغيرة .

أي المكان عنصر دلالي تتولد عنه مجموعة من الحقائق ، منها : أنه يأخذ حجم الدال في السياق الشعري أو الروائي ، وأنه يأخذ حجم المدلول ، ويؤدي طبيعته الدلالية بناء على علاقة الدال بالمدلول ، وهو ما يظهر إن المكان الدال هو مكان واقعي ، أما المكان المدلول فهو مكان إيحائي .

وقد شهد المكان في الرواية ، شأنه شأن الزمان وسائر الأدوات القصصية تطورا عبر التاريخ ، سواء فيما يتعلق بتصوره ذاته ، أو بتوظيفه في الروايات ، لكن مع تطور المعارف والمفاهيم والرؤى لإعطاء المكان مفهومه المحدود فخص بسمات معلومة ، ولذلك يعد المكان من المنظور النقدي، واحد من البنية المبدئية لبناء النصوص المسردة ، ان أكان النص قصة أو مسرحية أو رواية على حد سواء منذ مطلع القرن التاسع عشر ، الذي ركز فيه المهتمين بمجال الكتابة على المكان ولوه عناية فائقة حتى أصبح فيها عبئا ثقيلا الى حد ما على البناء الفني للنص ، " فقد كان الكاتب يسرد في وصف الأمكنة مقتربا الى زاوية الملل ، من خلال الاطالة في وصف مظاهر البهجة والثراء والبذخ ، او ذم حالة الفقر والتقشف ، وقد احتل وصف البيئة المكانية حيزاً كبيراً في الجانب الجمالي والمبهر للعمل الفني " .

ويختلف تناول العمل الفني من كاتب إلى آخر في عمل الإبداع وتصور الأمكنة ، و القدرة الخاصة لكل منهم في تصميم المكان داخل النص الروائي ، الذي يحاول أن يوصله إلى قارئه ، لأن الوصف هو أهم الأدوات التي يوظفها الكاتب في تجسيد المكان ، ويعني بالوصف أو السرد ذلك النظام أو الأنساق من الرموز والقواعد التي تستعمل لتمثيل العبارات أو تركيبها ، أو تصوير الشخصيات ، أو مجموع العمليات التي يقوم بها المؤلف لتأسيس رؤيته الفنية ،

اهتم الوصف منذ القدم بنقل الأشياء كما هي في الواقع، وتقديمها بأمانة تعكس المشهد، لكن ليس مجرد نقل فوتوغرافي سطحي. بل يسعى إلى تقديم صورة أكثر حيوية وعمقًا من الواقع نفسه. اذ ان عملية تحويل الواقع إلى نص أدبي عملية فنية تتطلب مهارات معينة واستخدامًا مميزًا للغة. فالأديب ينطلق من الواقع لكنه يصل إلى عالم جديد مستقل، له خصائصه الفنية التي تميزه عن كتابات الآخرين العاملين بنفس المجال من خلال استخدام اساليب المكر والاحتيال ضمن الضوابط الادبية للتحرر من الاطر التقليدية المتبعة.

نستخلص من ذلك أن القاموس اللغوي العربي ، جعل مفهوم الفضاء على المستوى اللغوي الأولي معادلاً تمامًا لمفهوم المكان ، بحيث يناوب كل واحد عن الآخر ، ويحل محله ، دون أدنى تمييز ، حيث نجد فيه وتحت مادة فضاء على ما يأتي : " فضاء يعرف بانه المكان الواسع

من الأرض والميزان الصرفي للفعل " فضا " يفضو ، فضوا ، فهو فاض ، وقد فضا المكان: إذا إتسع وأفضى إلى فلان : إذا بلغ إليه ، وأصله أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه ، والفضاء أيضا : الخالي الفارغ ، الواسع من الأرض ، كما أن الفضاء يعني الساحة وما اتسع من الأرض" .

أما التعريفات الحديثة لمفهوم هذه الكلمة التي أصبحت ذات أهمية بالنسبة للباحثين ، الذين أولوها أهمية كبيرة ، حيث استخدم الانجليز مفهوم مكان (Location , Place) للتعبير عن المكان – الفراغ (البعد / الفضاء) – الموقع ، أما عند الفرنسيين فقد استخدموا كلمة (Espace Lieu ,) بمعنى الفضاء ، حيث تستخدم (Lieu –Espace) تعني المكان ، في مقابل الفراغ أو الفضاء ، الذي عبرعنه (Espace) ثم استخدمت(Location) للتعبير عن الموقع المحدد المرتبط بالحدث ، وهو ما أوجد مستويين مختلفين للبعد المكاني ، أحدهما محدد ، ويتركز فيه مكان وقوع الحدث ، والآخر أكثر اتساعا يعبر عن الفراغ المتسع ، الذي تتكشف فيه أحداث الرواية .

ونتيجة للترجمة نجد خلطا في المفاهيم مثل : (المكان ، الفضاء ، الحيز، المجال ، الحقل) حيث يفضل (عبد الملك مرتاض) مصطلح الحيز ، عندما يذهب إلى أن (المكان) يطلق على الحيز الجغرافي المادي ، فقط ، وكذلك الحقل والمجال فهما ضيقا الدلالة بحيث لا يكادان ينصرفان إلا إلى مدلولات محدودة بالجغرافيا ، بينما الحيز شديد القدرة على استيعاب كل شيء: اليابس والمائي، الملموس وغير الملموس، الفراغ غير المرئي الممتلئ بالهواء والغاز. كما يتطرق إلى كل الخطوط، الأبعاد، الأحجام، الأشكال، والامتدادات بكافة تنوعها.

ويمكن القول أن مصطلح المكان (البعد – الفضاء) قد أصبح من المصطلحات الأدبية المتداولة ، حيث يعتمد مصطلح (مكان) للدلالة على الأماكن المحدودة (المغلقة ، أو شبه المغلقة) الخاصة ، بينما يطلق مصطلح (فضاء) على الأماكن المتعددة (المفتوحة) مثل الصحراء ، الغابات ...، ويستدعي المكان مصطلح الحدود والعلاقات، بينما يختفي نسبيا هذا التحديد بالنسبة للفضاء ، إلى حد أن نقل هذا التعريف وإسقاطه على موضوع دراسة المكان يبين أن الفضاء قد يصبح دالا على الأمكنة الموجودة في النص الروائي، والى أنه لا فرق بين المفهومين (الفضاء، المكان) ، بل أن كلاهما يوظف لنفس الغرض . وتتابعت آراء العديد من الباحثين التي تصب في عدم التفريق بين المفهومين، حيث تذهب (سيزا قاسم دراز) في هذا الصدد : "... ورغم أننا متفقين مع الاتجاه إلى التفرقة في الاستخدام بين كلمتي المكان وقرينها

الموقع ، كونها ذات دقة عالية في التعبير ، إلا أننا حرصنا اللالتزام في هذا البحث استخدام كلمة " المكان " اتساقا مع لغة النقد العربي "

، كما وجدت . في الوقت نفسه . دراسات وأبحاث تربط بين هذه المفاهيم ، لا سيما بين مفهومي كل من الفضاء والمكان ربطا تاما ، بحيث يصبح الفضاء فيها مقتصرا كليا على دلالة المكان ، وهي غالبا ، أي هذه الدراسات والأبحاث تنطلق من إدراك ما يطلق عليه (الفضاء الجغرافي) ، إذ نجد في هذا الصدد ، من يستعمل كلمة الحيز المكاني للدلالة على مفهوم الفضاء ، دون أن يجد أدنى اختلاف للدلالة بينهما .

ولقد دفع مصطلح الفضاء . الذي دخل الى ميدان الدراسات العربية نتيجة الترجمة وخاصة من الفرنسية . بكل دارس إلى التعبير عن رأيه ، لإبراز دلالته بدقة وبكيفية توظيفه في النص الأدبي ، وهو ما ظهر في كتابات (حسين جاعلا منه عنصرا فاعلا في (*) بحراوي) ، الذي أضاف مفهوما آخر للمكان الرواية ، لأنه يؤطر المادة الحكائية ، كما يعمل على تنظيم الأحداث ، ويبرز في الوقت ذاته تحركات الشخصيات وتطور الأزمنة داخل النص الروائي ، ولا يوجد في العمق سوى مجموعة من العلاقات والشخصيات التي يستلزمها الحدث والديكور، حيث خصص له في دراسته مبحثا كاملا فيما يتعلق بنشأته وتطوره .

وفي تعريف آخر أسهمت به (اعتدال عثمان) والذي تتفق فيه مع (عبد الملك مرتاض) في تحديدها للمكان ، حيث ترى أنه عبارة عن " مسافة ذات أبعاد هندسية أو طبوغرافية تحكمها المقاييس والحجوم ، لكنها نظام لعلاقات هندسية مجردة ، ونظام من العلاقات المجردة، تستخرج من الأشياء المادية الملموسة ، بمقدارما تستمد من التجريد الذهني، أو جهد الفرد الذهني، وبرأي الكاتبة أن اللغة هي الحلقة المشكلة للمكان ، وأنها تعطي دلالات مختلفة له ، كونها تعتمد على الجهد الفكري حيث يحاول القارئ إعمال الذهن في مشاركته الروائي للتعرف على الأماكن الموجودة داخل روايته .

كما عملت (سيزا قاسم) على توضيح دلالات المكان ، اذ انها ميزت بين (المكان، الموقع، أو الفراغ/البعد) لتعبر عن مستويين للبيئة المكانية في الرواية: الأول يشير إلى المكان المحدد الذي تجري فيه الأحداث، والثاني يعبر عن المفهوم الأوسع محلقا بالخيال، أي الفراغ الشامل الذي تتحرك فيه كل الأحداث الروائية. هذا الفراغ مرتبط بكل عناصر النص، ويتجلى من خلال حركة الشخصيات وتحوّلات الزمن التي تقود إلى تغيّر الفضاءات، كما يتجلّى من خلال البنية اللغوية للسرد. وإلى جانب ذلك، لا يغفل الروائي تلك المساحة المادية للنص الروائي، المتمثّلة في

العناوين والكلمات التي تشكّل جزءًا من بنيته الورقية، بما تحمله من دلالات وإيحاءات تُسهم في بناء عالم الرواية وتكثيف معانيها، وعلى القارئ أن يدخل إلى عالم النص ويفك رموزه ، وفيه يكتشف الدور الذي يلعبه الشخص في تكوين هوية الكيان الجماعي ، حيث يبدأ الدفاع عن المكان / ذاتيا خاصا ، وينتهي موضوعا / جماعيا ، معبرا عن المقومات كلها ، وخاصة الثقافية منها .

وهكذا أصبح المكان الروائي يحتل الصدارة ضمن المحكي المعاصر، إذ ليس هناك رواية بدون مكان، فوجود الشخصية والزمن والحدث يفرض وجود هذا الأخير.

انطلاقا من (إميل زولا) أصبحت الرواية تولي اهتماما متزايدا للمكان ، فالوصف الدقيق الذي اعتمده في أعماله الروائية يشكل بداية لتيار يشمل الأسماء الكبرى للرواية الحديثة (فلوبير، بروست ، جيد ، وكامي)، ضمن طيف واسع من الأسماء، وصولا للمعاصرين، (بتور، وروب غرييه) ، ثم الطبيعيون اولهم (زولا) يولون المكان مرتبة بالغة الاهمية، أو ما يسمونه الوسط الشئ الذي يفسر في اعتقادهم سلوك الشخصيات ، ويذهب في هذا الصدد إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يكون عنصرا بعيداعن وسطه بشكل منفصل ، وأنه متمسك بلباسه ومنزله ومدينته وإقليمه ، علاوة على ذلك، لا يمكن إدراك أي ظاهرة تتعلّق بالذهن أو القلب من غير البحث في مسبّباتها أو في ما يقابلها من عناصر نقيضة داخل الوسط الذي تتشكّل فيه؛ وهو ما يُشار إليه في النقد والفلسفة، وهو ما يسمى الأوصاف الأبدية للإنسان.

يرى (عبد الملك مرتاض) أن مصطلح الفضاء يقتصر على الحيزقياسيا ، لأن معنى الفضاء يفترض بالضرورة امتداده في الخلاء والفراغ، في حين ينصرف استعمال الحيّز إلى مجموعة عناصر مثل الوزن و النتوء، والحجم والشكل اضافة الى الثقل، في حين يُراد للمكان داخل العمل الروائي أن يُحصر في إطار الحيّز الجغرافي وحده، ويظل الحيّز المكاني أكثر تحديدا من الفضاء ، ويمكنه أن يكون حاملا لمعنى وحقيقة أبعد من حقيقته الملموسة، سواء من خلال الكلمات التي تقدم بها الرواية حيث يحلق معها القارئ، ويحط بأماكن متعددة ، وقد تكون الغرفة ذلك الحيز المكاني المحدد واسطة لأماكن كثيرة وفي أزمنة متغيرة، ثم قسمه (أي المكان) إلى مستويات ، وهي المستوى الجغرافي ، أو الشبيه بالجغرافي، والحيز المائي والحيز المتحرك ، وكذا الحيز التائه ، والحيز العجيب الغريب ، وأعطى للمكان دلالات واسعة ، واعتبر الحيز الأدبي الروائي ليس جغرافيا بل هو مظهرا من مظاهرها ، وهو أكبر منها ، حيث يتمثل في الامتداد والانخفاض والارتفاع والطيران والإبحار، ويمكننا التعرف على المكان من الأدوات اللغوية لأنها مظهر خلفي ، كقول (دخل ، أبحر ، سافر).

وفي هذا التقسيم نجد أن الباحث يركز على اللغة ودورها في إبراز المكان ونوعه ودلالته ، وإن كان الحيز الجغرافي محدد إلا أنه ينفتح على فضاءات مختلفة من خلال اللغة السردية . أما (الطاهر روابنية) فقد أوجز حديثه عن المكان في تحديده لتعريف المكان المغلق وعلاقته بالشخص ، وعبر عنه " بالواقع المرير " واقع الانحباس في الزنزانة عن الذات ، والغياب عن فضاء الجماعة ، بحيث يصبح كل ما فيه ممثلا لقوى عدوانية تتحدى إرادة الإنسان، هذا المكان يكون له الأثر المباشر على الإنسان ، كما يمثل بالنسبة له مكانا سلبيا ، لأنه يقيد من حركته كالسجن ، وبلاد الغربة.

وفي تقسيم الأماكن الضيقة هناك وحدتين أساسيتين : الأولى تتكون من وحدات صغرى ، وتشمل الأمكنة المحدودة مثل المقهى ، الحي ، أمكنة العبادة ، وأمكنة الفرجة ، والحدائق العامة ، أما الثانية فهي البنية الواسعة الشاملة ، التي تكون فضاء النص في إطاره الكلي ، سواء ما كان متخيلا أو واقعيًا.

وقد قسمته الباحثة وفق الرواية الى الآتي :

١- دلالة النهر / الخوف

تتجسد هذه الدلالة من خلال النص :

" لا ندري جثة من هذه التي تطفو على الماء قرب الجسر فقد تجمعنا نحن التلاميذ العائدين من المدرسة ننظر إلى ثيلنها وقد إنتفخت وظلت طافية كخشبة.... إن الجثة إنحدرت من تلك القرى الواقعة على نهر الغراف".

يمثل النص الانثى العاشقة المغدورة التي قتلت احلامها وقطع رأسها في هذا النهر إذ ينطوي المكان (الغراف)على حاضنة مثالية للموروث الحكائي الشفاهي المتداول والمحمل بدلالات ثقافية من منشأ الاعتقادات الثقافية والبيئية والمتخيل ، محملاً بالخطيئة ، العقاب- وتعديها الزمني من الماضي إلى الذاتي من قبل هذه البنية الثقافية – المجتمع – الحاضر، والمحملة بالمدلول الفكري ، الاجتماعي، من خلال اتصال الماضي بالحاضر، مكونة هذا المجتمع – سرديا إذ يكون المجتمع تحت هيمنة الأنماط الثقافية- العقاب .

٢. دلالة النهر / الأمان

يعمد معظم الروائيين على قراءة الحاضر بالاستعانة بالماضي ، وهكذا اعتمدت الكاتبة في « بناء الزمن الدائري في هذه الرواية ، فعبر نقطة البداية تنتهي الرواية في التقاء زمنين الماضي

بتضحياته ، والحاضر بضحاياه (...) فإنّ أغلب التحولات السردية تنتقل من مستوى الأفعال السلوكية للشخوص ، لتتحول إلى حركة وجدانية عمادها الحلم والتذكر والاسترجاع.» كما نجد في النص الآتي:

"أرى الجنود في لمعسكر المجاور يهربون بعد أن يلقي كل منهم سلاحه في ماء الغراف ....".

يكشف النص عن تاريخية المكان التي بدورها لا تحمل هذا البعد فقط في علاقتها بالسلطة بل تحمل ذاكرة مكانية ممتدة عبر التاريخ معبرة عن الاستبداد والقهر ، في ضوء الابعاد المكانية المتمثلة بالبيئة المائية بالريف والمدن , فيمكن من خلال التأريخ أن نفهم الصراعات والمعاني العميقة والمضمرة تحتها ، ندرك أن الأحداث منبعها الواقع لا المتخيل وأن المكان هو الذي يضخ المعنى في التجربة بوصفه المرجع الواقعي للأحداث .

إنّ الأزمات التي طرأت على المجتمع العراقي خلال العقود الماضية ، والتي لامست طبقات وقوميات المجتمع جعلت الرواية تأخذ منعرجًا آخر ناقش موضوع تلك الازمات وآثارها، فاسوحت من الأحداث محورا لها تتولد منها أسئلة مضمونها الحكائي ، وفي أحضانها تتشكل مختلف عناصر سردها ؛ والروائية حاولت من خلال هذه الرواية إبراز أسباب اندلاع الأزمة السياسية في البلاد والذي كان من أهم أسبابها الفقر الذي كان يعاني منه الشعب العراقي والهوة الكبيرة التي كانت تفصل بين الطبقة الفقيرة والطبقة الغنية.

إن الإشارة السردية تقودنا ، بإشاراتها المغلفة بأيديولوجية المرأة في السرد النسائي إذ ان المرأة تشكيل لغوي انحسر في دورالتربية والتفاني من أجل الابناء وتكوين أحلامهم فهي وإن ظهرت في رواية (كاهنات معبد آور) الشخصية ذات الصفات الايجابية للمجتمع من حيث الحكمة والصبر هدفها التفكير في مستقبل الأبناء فإنها من جانب آخرتمثا مثلث يرمز للمكان والأصالة والوحدة بين الماضي والحاضر، وجميع الصور الترميزية تعني تنويعًا رمزيًا ، انتقلت من الواقعي إلى الرمزي في سياقات : الأرض ، النهر. التي تتراقص وتنتقل ضمن هذه المساحة، بوصفها كيانًا إنسانيًّا يمتلك وجودًا فعليًّا، ويتميّز بثقله ودوره، فضلاً عن علاقاته الاجتماعية المؤثرة وذات الصلة بحركة المجتمع وتطوّره المستمر. وبما أنّ المرأة الريفية نتاج مجتمع ريفي خاضع لأعراف وقواعد تمليها البيئة وعواملها الفكرية والاجتماعية، فقد كان حضورها مشكَّلًا بتأثيرات مباشرة من تلك المنظومة. ومن ثمّ كان لا بد أن تُطبع المرأة بطابع هذا الوسط، فتتجلّى في سمات كلية مميّزة على مستوى الملامح والسلوك. إنّ هذا التشكيل في جوهره يعكس جانبًا من المعاناة والقسوة التي تصوغ حياة المرأة الريفية تحت سلطة العرف الاجتماعي وهيمنة الرجل نجدها تقول :

" النساء لاتتقن سوى الولادة، ولادة أكبر عدد من الاطفال والالقاء بهم في نهر الحياة ،النهر الذي يعودون إليه كلما شعروا بحرقة الايام ".

الهروب هو ذات الإلانسان التي تسعى لفك قيودها وتحررها من الأنا التابعة الخاملة، فالهروب والخروج يساعد هذه الأنا على تحقيق ذاتها ويعمل على خلاصها من الضغوط الاجتماعية والسياسية

تتسلط عليه وتجعلها أسيرة , بهذا الهروب والاتصال بالجسد الاجتماعي الثقافي البرانى فالهروب يصدر عن الطبيعية الانسانية للابتعاد عن واقع غير مرضٍ لكن من شأن هذا السلوك أن يجعل الفرد خارج جماعته ومجتمعه ويشعره بالاغتراب. أو إن هذا الهروب هو تمزيق لهذا العقد الاجتماعي المملوكي، الذي هو اختراع خضعت له هذه المجتمعات لحاجاتها ، وحين وصلت مرحلة من التطور الثقافي، ما كان لها الاّ أن ترفضه ،مشكلة مرحلة جديدة تقوم على االحتجاج والمعارضة داخل هذا النظام .

ومن ثم ، فهذا السلوك يعني تهديم ورفض الأنظمة الثقافية الاجتماعية المتخيلة أو اللاشعورية التي كانت تضخ أعرافها وقوانينها و ماضويتها بشكل هيمني. فالكاتبة ومن خلال دلالة النهر توضح ذلك :

" تلقي بنفسها في الماء الارد الذي احتضن الجسد الحار لتجد نفسها على الضفة الاخرى ".

٣. دلالة النهر/ المانح

نجد هذه الدلالة في قولها :

"قريتنا التي تقتات عوائلها على السمك الذي يتم صيده من نهر الغراف حيث كان عامرا بالثروة السمكية قبل أن تجري عملية تجفيف أهوار الجنوب ..."، هنا تظهر الجماعة كفاعل مسلوب الإرادة، خاضعًا لتأثيرات الفقر والعوز والضيم، وهي عوامل تعمل على تنميط سلوكها وتقييد خياراتها. ولا يجد أفرادها ما يمدّهم بقوت يومهم سوى النهر.

نجد أن اللغة هي المفتاح السحري عند الكاتبة، من خلال تجسيدها للمكان الواقعي بطريقة فنية ، وإضفاء الصورة الجمالية عليه وربط المكان ربطا تلاحميًا بالعمل الفني , فالمكان يجب أن يكون عامًلا فعالًا وبنّاءً في العمل الروائي فعندما تذكر المكان ، نشعر أنه يولد شعورًا وإحساسًا لهذا المكان ويضفي عليه خاصية الحيوية والحركة كما في قولها : "هذا النهر لا يضاهيه اي نهراً في

العالم وسوف يعود آجلاً او عاجلاً ليفيضَ بالخير ويتدفق بالماء الغزير وتنتعش الحياة على ضفتيه ...."

فالمكان يكتسب هويةً من هوية الإنسان الذي يعيش فيه تماما ، كما يؤثر على هذا الإنسان ويكسبه هويةً خاصة وتتحقق هذه الهوية في نصوص عدة منها :

"الشط عالم غريب يا أبنائي، إن الرجل الذي تأخذه الموجة لايمكن أن تعطيه ابدًا يبقى متعلقًا بذلك السحر ولاحياة له الا إنه كالسمكة ما إن تخرج حتى تموت "

وقولها :" أخذنا أبي إلى هناك حيث النهر يتنفس بهدوء ...".

"ها أنت تقطن الان على النهر الذي لم يزل يرقد في مهده كما كان ابداً طفلاً لم تفطمه الامهات ، أنا في شوق أن اغمس راحتي وأعب من مائه، فأنا عطشى منذ فارقتك .... يا غراف يا رفيق الطفولة ".

نجد الكاتبة هنا ترسم علاقة وطيدة بينها وبين المكان ، يضفي عليه طابع الاندماج المكاني حين يبرز المكان بصورة بحتة في النص الروائي ، دون التخلي عنه .

" اسافر كثيراً وأعود لالتصق بجسد المدينة وغرافها ، هذا الشاعر الغريب المختلف عن الاخرين بسبب وبلا سبب لكني أفهمه فأنا أشبهه أيضا ".

وكأنه عزيز لها قد فارقته مدة من الزمن ثم لقيها ، فقد أضفت على صورة المكان صورة خيالية تجلت فيها جميع معالم الجمال ، متمركزة على الوصف المكاني الغزلي ، فارتباطها الحميم بالمكان ، نجده غني بالحس الوطني والأنساني تقول : " تفتح أنت أيها النهر يا توأم الروح ذراعيك وتحتوي قلقي وإنكساري وتشذب أغصاني وتجعل سماواتي أكثر اتساعاً ".

" الغراف وما أدراك ما الغراف ؟ أغنية يرددها الهائمون في ليلك المظلم وموال طويل لا ينتهي تصغي له بيوت الطين .... وتسرح شعرها في رياح الهجير ".

٤. دلالة النهر كونه / المنقذ . المخلص

الغراف لحن صاغته الفتنة وعزفته باصابع يقطر منها ماء الحب ... الغراف اعزل يملأ الارض عدلًا بعد ان ملأت ظلمًا وجورا)) .

تأسس المتخيل السردي عندما استدعت الكاتبة شخصية (المخلص) دلالة على وعيها الثقافي من غير اقحام الشخصية في النص وانما بصورة عرضية من اجل تجديد النص الروائي و بصورة رمزية غير مباشرة ضمن التدرج البنائي للنص وهذه التقنية لا تكلف الكاتب سوى أنه يترك تحليل النتائج للمتلقي أو من خلال استدعائه لمخزون الذاكرة, وهي صورة تشبه شخصية المهدي إذ تتخذ منه ملاذاً ومخلصاً من الظلم والجورعائدة الى الموروث الديني بما يناسب فكرتها لتآزر الشكل والمضمون من خلال صورة النهر بما يمد الصورة التي أرادت رسمها .

((احلم بقصائد وقصص تطفو على الماء .....)).

" أن يطلع عليها الاخرون. إن آراءهم تربكني ولا أفرق بين الصدق والكذب في كلامهم ".

لقد بينت لنا الكاتبة الصفات الجمالية لهذا النهرالتي إن عكست فتعكس خبرتها وتجربتها في هذا المكان الذي عاشت به في صباها ، ولعبت على جوانبه منذ نعومة أظفارها ،فلا عجب أن تبقى صورته دائما في مخيلتها تلح عليه ، ومن هنا يصبح هذا النهر جزءا من حياة الشخصية في المكان عبر تفاصيله الأليفة , كما أنها لم تغفل أهمية هذا المكان تاريخيًا وحضاريًا لتشكل من معانيه مرجعية ، تاريخية وحضارية.

" يانهر ياصديقي لقد كتبت شيئاً ولا اريد أن يطّلِع عليهِ غيرك ترنمت بأولى الكلمات.... سأعقد معك معاهدة صداقة أن أحيطك علماً بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ أعرض عليكَ كلماتي وإن شئتَ أن تمحوها فإفعل... لاجمهور لي سواك ولا ناقد أعرض عليه قصائدي غير أَمي".

تصف الكاتبة النهر بصورة فنية أدبية شيقة ،تدفع للتشويق والإمتاع ، فصورة المكان لم تغب عن ذهنها ،بل بقيت ملتصقة به التصاقا شديدا تبين شدة تعلقها بهذا المكان. لما يتمتع به من آثار خلابة ، تُسحر العيون كما في قولها :

" البيئة الساحرة والاماكن التي أَمارس فيها سياحتي اليومية.... متَع الطبيعة وجمال النهر والماء وأصوات الطيور بزعيقها الحاد والاشجار التي أعتبرها صديقات أَتبادل معهن الحلم والماء والاسرار".

خاتمة :

أصبح المكان أحد المرتكزات الرئيسة التي تدور حولها نظرية الأدب ، اذ تغيير المفهوم الواقعي في الزمن الحديث اذ لم يعد المكان مجرد خلفية لوقوع الأحداث الدرامية ، او معادلا كنائيا للشخصية الروائية فقط ، بل اكتسب قيمة خاصة في الاونة الاخيرة جعلت منه عنصرا ذو ميزة

جمالية ودالة فاعلة في العمل الفني والأدبي ، ويعطيه أبعادا خاصة . كما انه أصبح أحد العناصر الحكائية التي تركب بنية العمل الروائي ، فقد خضع للتطورات الذي طرأت على الرواية العربية نتيجة الصراعات المتعاقبة ، فبات يتصوغ داخل المجال الحيوي في النص الحكائي ، وتصدر الواجهة كشخصية اعتبارية مستقلة ، وذلك بسبب ارتباطه بمجمل صيغ الخطاب الروائي ، في العديد من كتابات الروائيين . ويعد المكان من المحاور الروائية المهمة والمؤثرة في إظهار فكرة الكاتب ورؤيته من خلال اسلوب الطرح المعاصر، وفهم شخصيته الرئيسة ، ن إدراك الإنسان للمكان يكون بشكل حسي ومباشر، وصراعه معه يعكس تأكيدًا لذاته وهويته التي يحاول اقناع المقابل بها . فكلما زاد شعوره بالمكان، زادت أهمية وجوده وانتماءه. والمكان يضيق بحياة الإنسان مثل الزمان تمامًا، فالوجود فيه مستمر طوال حياته. ولا تكتسب الذات أهميتها إلا من خلال تفاعلها مع المكان. وأكثر الأماكن تأثيرًا في حياة الإنسان هو المكان المعاش، لأنه يشكل هويته ويترك بصمة في ذاكرته ومخيلته ويكون ذو صلة وثيقة بتصرفاته.

اعتمد شكيل النهر في احدى الروايات على الوصف والحوار من جهة، والتراث وملامح الشخصيات من جهة أخرى. حاولت الكاتبة تقريب صورة النهر عبر تخييل منطقي يستند إلى الإدراك السهل محلقة بسماء الواقع المفعم بالحداث. وكلما تعمق هذا الإدراك، أصبحت الرؤية أكثر عمقًا. حافظت الروائية على النظرة النمطية للنهر، جاعلةً منه مكانًا حميميًا يعكس أصالة سكانه، مع التزامها بمهام الكشف عن القضايا الأخلاقية والسياسية المرتبطة بالمكان، مثل الطبيعة، القهر، الاستلاب، والأصالة.

الهوامش:

١) المنجد في اللّغة والأعلام ، دار المشرق، بيروت – لبنان ، ط١٩٧٥ ، ٢٢ . ص ٢ . ٧٧١

٢) أسماء شاهين ، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا ، دار الفارس للنشر والتوزيع الأردن ، ط٣ ، ١ (

٣) ١٢ ص ، ٢٠٠١

٤) أسماء شاهين ، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا ، ص ٥ .١٥

٥) سيزا قاسم، بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ،القاهرة،الهيئة المصرية للكتاب،١٩٨٤،ص ٧٤

٦) حمد زياد محبك، "جماليات المكان في الرواية ، " مجلة الفيصل الثقافية،الرياض،العدد٢٨٦،يوليو /أغسطس ٢٠٠٠، ص٥٨

٧) Henri Mitterrand, Le discours du roman, Paris,: PUF, 1980, p194

٨) مصباح أحمد الصمد،"مصر والولادة الثانية،الرحلة في كتابات ميشال بوتور ، " مجلة عالم الفكر،الكويت،العدد الثاني،١٩٨٦،ص

٩) ٢٧٠

١٠) Michel Crouzet, Espaces romanesques, Paris: PUF ,1982 ,p122

١١) ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة (، ترجمة: فريد أنطونيس)، بيروت، منشورات عويدات ،١٩٧١،ص١ ٦

١٢) جلال الربعي : أسطورة الجسد ، مكتبة علاء الدين ، صفاقص . تونس ٢٠٠٦

١٣) محمد بوعزة : بناء الدلالة في النص الروائي ، ، ص ٥

١٤) محمد بوعزة : بناء الدلالة في النص الروائي ، ، ص ٥

١٥) خليل إبراهيم الرواية في الأردن في ربع قرن ١٩٦٨، دار الكرمل ، عمان . الأردن ، (٢٥)

١٦) . ١٢٢ ص ، ١٩٩٤

١٧) محمد خوجة : تجليات المكان في السرد الحكائي ، دار فضاءات للنشر والتوزيع ، عمان . (٢٧)

١٨) الأردن ، ٢٠٠٩ ، ص ٢٩ .

١٩) سيزا قاسم دراز : بناء الرواية ، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية (٢٨)

٢٠) للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤ . ص ٧٨

٢١) بن منظور: لسان العرب ، المجلد الثاني مادة فضا ، مرجع سابق ، ص ١١٠٧

٢٢) سيزا قاسم دراز : بناء الرواية ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

٢٣) عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة، ط١، دار المنتخب العربي، لبنان ، ١٩٩٤ ص،١٧٩

٢٤) ينظر : غاستون باشلار : جمالية المكان ، ص ١٣ و ١٤ .

٢٥) سيزا قاسم دراز: بناء الرواية ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ .

٢٦) ينظر: عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، (٦٨)

٢٧) عالم المعرفة ، ع ٢٤٠ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ديسمبر

٢٨) الرواية: ١٤١ . ١٦٢ .

٢٩) ينظر، حسين البحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية) ، المركز الثقافي (٦٩)،

٣٠) العربي ، بيروت ١٩٩٠م

٣١) اعتدال عثمان : جماليات المكان ، مجلة الأقلام ، ع ١ ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٧٦

٣٢) سيزا قاسم : بناء الرواية ، المرجع السابق ، ص ١١٠ . وما بعدها .

٣٣) ينظر عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، يحث في تقنيات السرد ، مرجع سابق ،

٣٤) ص ص ١٤٣ . ١

٣٥) ينظر . الطاهر روابنية الفضاء الروائي في الجازية والدراويش لعبد الحميد بن هدوقة ، (٧٤)

٣٦) دراسة في المبنى والمعنى ، مجلة المساءلة ، ع ١ ، اتحاد الكتاب الجزائريين ، الجزائر ١٩٩١ .

٣٧) شريبط أحمد شريبط : تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (٧٥) (١٩٨٥-١٩٤٧)

٣٨) الجزائر ١٩٩٨ ، ص ٤٩ .

٣٩) الرواية : ٥.

٤٠) إدريس بوديبة: الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار،سحب الطباعة الشعبية

٤١) للجيش،الجزائر، دط،٢٠٠٧ : ٧٦.

٤٢) الرواية : ٥٩.

٤٣) الرواية : ١٨٤.

٤٤) ينظر: الفرد والمجتمع:

٤٥) ينظر ن : ٣٠٦.

٤٦) ينظر تأسيس المجتمع تخيليا : ٣٢٧-٣٢٥

٤٧) الرواية : ٩٩.

٤٨) الرواية : ٦٠ .

٤٩) الرواية : ٢٣.

٥٠) الرواية :٢٢.

٥١) الرواية : ٢٣.

٥٢) الرواية : ٥٤.

٥٣) الرواية : ٩٤.

٥٤) الرواية : ١٠٤..

٥٥) ينظر : بنية الشكل الروائي : ٢٢٣.

٥٦) ينظر : شعرية الأحلام في الرواية العربية : ٢٥٥.

٥٧) الرواية : ١٧١

٥٨) الرواية: ١٢٦ .

٥٩) الرواية: ١٢٦.

المصادر والمراجع :

١) المنجد في اللّغة والأعلام ، دار المشرق ، بيروت – لبنان ، ط ١, ١٩٧٥ .

٢) أسماء شاهين ، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا ، دار الفارس للنشر والتوزيع الأردن ، ط٣ ، ١ ، .٢٠٠١.

٣) سيزا قاسم، بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ،القاهرة،الهيئة المصرية للكتاب ،١٩٨٤.

٤) احمد زياد محبك، " جماليات المكان في الرواية ، " مجلة الفيصل الثقافية،الرياض،العدد٢٨٦، ط١،يوليو /أغسطس ٢٠٠٠.

٥) Henri Mitterrand, Le discours du roman, Paris,: PUF, 1980, p194

٦) مصباح أحمد الصمد،"مصر والولادة الثانية،الرحلة في كتابات ميشال بوتور ، " مجلة عالم الفكر،الكويت،ط٢،العدد الثاني،١٩٨٦.

7) Michel Crouzet, Espaces romanesques, Paris: PUF ,1982 ,p122

٨) ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة (، ترجمة: فريد أنطونيس)، بيروت، منشورات عويدات ،ط١٩٧١،١.

٩) جلال الربعي : أسطورة الجسد ، مكتبة علاء الدين ، صفاقص . تونس ٢٠٠٦

١٠) محمد بوعزة : بناء الدلالة في النص الروائي ،ط١ ،،١٩٩٥.

خليل إبراهيم الرواية في الأردن في ربع قرن ١٩٦٨، دار الكرمل ، عمان . الأردن ، ٢٥ ، ١٩٩٤

١١) محمد خوجة : تجليات المكان في السرد الحكائي ، دار فضاءات للنشر والتوزيع ، عمان . (٢٧) الأردن ، ٢٠٠٩

١٢) ابن منظور: لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على, أبو الفضل, جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت

١٣) الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

١٤) عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة، ط١، دار المنتخب العربي، لبنان ، ١٩٩٤ ص،١٧٩

١٥) غاستون باشلار : جمالية المكان ط١، ١٩٦٢.

١٦) عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، (٦٨) عالم المعرفة ، ع ٢٤٠ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ديسمبر

١٧) ١٩٩٨ .

١٨) حسين البحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية) ، المركز الثقافي (٦٩ العربي ، بيروت ١٩٩٠ّ

١٩) اعتدال عثمان : جماليات المكان ، مجلة الأقلام ، ع ١ ، بغداد ١٩٧٦ .

٢٠) الطاهر روابنية الفضاء الروائي في الجازية والدراويش لعبد الحميد بن هدوقة ، (٧٤)

٢١) دراسة في المبنى والمعنى ، مجلة المساءلة ، ع ١ ، اتحاد الكتاب الجزائريين ، الجزائر ١٩٩١ .

٢٢) شريبط أحمد شريبط : تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (٧٥) (١٩٨٥-١٩٤٧) الجزائر ١٩٩٨ .

٢٣) إدريس بوديبة: الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار،سحب الطباعة الشعبية

٢٤) للجيش،الجزائر، دط،٢٠٠٧.

٢٥) الفرد والمجتمع، ميشال موسى ، دار التنوير ، ط١، ٢٠٠٩

٢٦) تأسيس المجتمع تخيليا ، كورنيلوس ،ط١، ٢٠٠٣

٢٧) شعرية الأحلام في الرواية العربية ، ابراهيم ازوغ ، ط٢، ١٩٩٢.